الفَصْلُ الثَّانِي: أُمُورٌ تُعِينُ عَلَى تَحْقِيقِ الشُّكْرِ

١- الصبر

الصبر من الأمور ذات الصلة القوية بالشكر، فالباحث فى مسألة الصبر قل أن يجد الحديث عنه منفردًا دون اقترانه بمسألة الشكر، فكلاهما يرتبط بالآخر ارتباطًا وثيقًا؛ لذا.. كان لزامًا أن نتحدث عن الصبر بشيء من التفصيل حتى تكتمل الصورة إن شاء الله.

الصبر في اللغة

[الصبر فى اللغة يعنى: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكى والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما[1]].

حقيقة الصبر

يقول ابن القيم رحمه الله: [هو خُلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها[2]].

وهناك أقوال مأثورة فى تعريف الصبر من بعض السلف ذكرها ابن القيم فى كتاب: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين منها:

---

(١) عدة الصابرين صـ١٢.

(٢) عدة الصابرين صـ١٤.

قول الإمام عليّ رضى الله عنه: "الصبر مطية لا تكبو" أي: أن من التزم الصبر وجعله ديدنه فى الحياة وعلم حقيقته فكأنه يمتطى فرسًا شديدًا لا يتعثر ولا يكبو؛ بل إنه يمضى بقوة وثبات؛ حتى يصل إلى غايته.

ومنها قول أحدهم: "الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب" أي: أن العبد إذا ابتلى يجب عليه أن يتعامل مع هذا الابتلاء على أنه من ربه -عز وجل- وما دام كذلك فيتحتم عليه التزام الأدب مع خالقه والرضا بقضائه؛ فهو -عز وجل- أعلم بما يصلح به أمر العبد.

أقسام الصبر

وللصبر قسمان صبر بدنى وآخر نفسى، ولقد أوضح ذلك الإمام ابن قدامة المقدسى فقال: [اعلم أن الصبر على ضربين:

أحدهما: بدني كتحمل المشاق بالبدن وكتعاطى الأعمال الشاقة من العبادات أو من غيرها.

الضرب الآخر: هو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وهذا الضرب إن كان صبرًا عن شهوة البطن والفرج ثم سمّي عفة.

وإن كان الصبر فى قتال سمّي شجاعة، وإن كان فى كظم غيظ سمّي حلمًا، وإن كان فى نائبة مضجرة سمي سعة صدر، وإن كان فى إخفاء أمر سمّي كتمان

سر، وإن كان فى فضول عيش سمي زهدًا، وإن كان صبرًا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة[١]].

ومن هنا يتضح لنا أن هناك الكثير من المسميات التى تحمل فى طياتها معنى الصبر وحقيقته وإن اختلفت فى ألفاظها.

ملازمة الصبر للشكر

ذكرنا أن الصبر اقترن ذكره بالشكر فى غالب الأيات والأحاديث وكلام العلماء؛ ومن ذلك ما نجد فى القرآن الكريم من تكرار كلمتي: صبار شكور، ولقد قال العلماء: إن الصبر والشكر هما شطرا الإيمان، أي: أن الإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر، ومن ثم لا يمكن الحديث عن أحدهما دون ذكر الآخر.

ولقد قال الإمام أبو حامد الغزالى في ذلك: [الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهما -أيضًا- وصفان من أوصاف الله -تعالى- واسمان من أسمائه الحسنى، إذ سمَّى نفسه -عز وجل- صبورًا و شكورًا، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن، ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان، وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ومن به الإيمان؟![٢]].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين صـ ٢٩٠.

(٢) إحياء علوم الدين (٤ / ٦٣).

وقال ابن القيم فى ذلك: [إن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهى ترجع إلى شطرين فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة الله، وهو حقيقة الشكر والترك هو الصبر عن المعصية والدين كله فى هذين الشيئين، فعل المأمور وترك المحظور [١]].

وقال رحمه الله فى الكتاب نفسه: [كل من الصبر والشكر داخل فى حقيقة الآخر لا يمكن وجوده إلا به، وإنما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه والأظهر منه[٢]].

وقال: [إن الشكر هو العمل بطاعة الله وترك معصيته، والصبر أصل ذلك، فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر، وإذا كان الصبر مأمورًا به فأداؤه هو الشكر [٣]].

إذن نخلص من هذه الكلمات النفيسة إلى أن الصبر والشكر كلاهما لا ينفصم عن الآخر، والإيمان لا يكون إلا بهما؛ فهما شطرا الإيمان كما ذكرنا، ويكفى ما كان من ذكرهما معًا فى العديد من آي الذكر الحكيم كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم٥].

---

(١) عدة الصابرين صـ ١٠٨ .

(٢) عدة الصابرين صـ ١٤٧ .

(٣) عدة الصابرين صـ ١٤٧ .

والتى تكررت فى العديد من الآيات: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى٣٣] و ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان ٣١] وغيرها.

وكقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد٢٢].

فالآيات الكريمة منها ما ذكر فيه القران المباشر بين الصبر والشكر، (لكلِّ صبار شكور) ومنها ما ذكر فيه الصبر صراحة والشكر ضمنًا؛ إذ أن الإنفاق من رزق الله هو فى حقيقته نوع من أنواع الشكر لله -عز وجل- وهو شكر الرزق بكل أنواعه.

والصبر صبران

صبر محمود وصبر مذموم، فالصبر المحمود هو ما كان بلا جزع ولا اعتراض على قضاء الله عز وجل.

وهذا النوع من الصبر يأتى به صاحبه طواعية بكل رضًا وتسليم بأمر ربه -عز وجل- حال المصيبة، ويأتى به محبًا متزلفًا لمولاه -عز وجل- عند القيام بالطاعات والعبادات؛ التى يكون فيها قدر من المشقة.

والعاقل من يدرك أن الصبر على ذلك النحو يكون به النفع فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا يكون معينًا له على مواصلة حياته سببًا فى طمأنينة نفسه وسكون قلبه جالبًا للثواب من الله -عز وجل.

والله -عز وجل- حين يرى منه ذلك فإنه يرزقه مزيدًا من الصبر ويعينه عليه.

وأما فى الآخرة فإن الله أعد للصابرين أجرًا عظيمًا لا يعلم كنهه إلا هو سبحانه، قال الله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران١٤٢].

ولقد وصفه الله -عز وجل- بأنه صبرجميل فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم كما فى سورة يوسف على لسان سيدنا يعقوب عليه السلام حين ابتلى بفقد ولده قال: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف١٨] وكقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ [المعارج٥] فما أبدعه من توصيف قرآني لذلك الخلق الكريم الذى ورد بصيغة الأمر من العلى القدير.

وعلى الجانب الآخر نجد الصبر المذموم الذى لا يرضى عنه الله -عز وجل- والذى لا يجنى صاحبه من ورائه سوى الخسران فى دنياه وأخراه، ومن أمثلة ذلك الصبر المذموم أن يصبر الإنسان بعد فوات أوان الصبر، فهو حين يبتلى يأتى بأفعال جاهلية تغضب الله -عز وجل- من الجزع والاعتراض على قضاء الله، وحين لا يجد جدوى من كل ذلك وأن ما يفعله لم يأت بأيّ نفع؛ فإنه لا يجد أمامه إلا أن

يصبر، ولكنه صبر المضطر الذى يجعل من الصبر خياره الأخير، فى حين أخبرنا المصطفى ﷺ " أن الصبر عند الصدمة الأولى[١].

ومن ذلك ما جاء فى القرآن الكريم فى وصف حال أهل النار -أعاذنا الله وإياكم منها- حين قال تعالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور١٦].

ومن أمثلة ذلك الصبر المذموم صبر المشرك على شركه، والكافر على كفره، والعاصى على معصيته كما فى قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان٤٢]

وقوله عز وجل: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص٦].

فهؤلاء -والعياذ بالله- أصحاب همة عالية فى صبرهم؛ يبذلون فيه الجهد الكثير، ويتلمسون أسبابه، ولا يدركون أن فى صبرهم ذلك هلاكهم وخسرانهم فى الدنيا والآخرة؛ فهم فى الدنيا من أهل الضلال ومن أولياء الشيطان وهم فى الآخرة من أهل النار.

---

(١) متفق عليه: البخارى١٢٢٣، مسلم٩٢٦٩.

الصبر من شيم الكرام

يكفى المرء ترغيبًا فى الصبر وتحببًا أن يعلم أنه من صفات الرسل والأنبياء والأولياء، وأنه حين يتحلى به فإنه يتشبه بهؤلاء الأخيار من خلق الله.

قال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف٣٥]

وقال سبحانه عن سيدنا أيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص٤٤]

وقال عز وجل عن سيدنا إسماعيل حين أمر الله- عز وجل- أباه إبراهيم الخليل عليه السلام بذبحه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات١٠٢] فما أجمل أن تتشبه بصفات الصفوة وأن تتخذهم قدوة وأسوة!.

ثمرات الصبر

وللصبر ثمرات يجنيها العبد فى الدنيا والآخرة منها:

أن الصابر يكون فى معية الله وكفى بذلك غنمًا لأولي النهى، فماذا يريد العبد بعد معية ربه -عز وجل- وأي مفازة هى أكبر من ذلك، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة١٥٣]

قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال٦٦].

*إن الصبر من أسباب الفلاح كما قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران٢٠٠]

* إن الله -عز وجل- قد بشر الصابرين بالخير الكثير فى دنياهم وأخراهم فقال عز وجل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر١٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة١٥٥-١٥٧].

فجعل الله جزاء الصبر بغير حساب فهو مطلق لا يعلم مداه غير الله -عز وجل- وذلك كما أسلفنا يدل على عظم الجزاء من الرب الكريم.

كما بشرهم -سبحانه- بأنهم أهل الاستحقاق لصلوات ربهم ورحمته وأنهم أهل الهداية فصبرهم يكون ضياءً لهم يضئ دروبهم؛ ليثبتوا على صراط ربهم المستقيم.

وتلك والله منن عظيمة وأفضال عميمة لا يستحقها إلا مَنْ أهَّلَهم ربهم لذلك ورزقهم الإخلاص فى الصبر؛ فكان صبرهم لله وحده لا يرجون به غير رضاه كما قال عز وجل: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر٧].

ورزقهم الهمة العالية؛ فإن الصبر لا يتأتى إلا بعزيمة قوية وهمة عالية: فلقد جعله الله -عز وجل- من عزم الأمور كما جاء فى العديد من آيات الذكر الحكيم.

قال عز وجل على لسان لقمان الحكيم: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان١٧]

وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران١٨٦]

فاللهم اجعلنا من أهل بشارتك، ومن الفائزين بمعيتك، وارزقنا صبرًا يكون لبلوغ رضاك سبيلاً.. آمين.

٢- عبادة التفكر

قال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد٣-٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران١٩٠-١٩١]

الله عز وجل يوضح لنا فى هذه الآيات الكريمة وفى مثيلاتها فى القرآن الكريم أنه -عز وجل- حين يذكر لعباده مظاهر قدرته فى الكون وعظائم صنعه فى الخلق، وحين يعدد نعمه التى أسبغها عليهم ظاهرة وباطنة يكون وراء ذلك حكمة جليلة ألا وهي حث العباد على التفكر والتأمل والتدبر فى آلاء الخالق المنعم وآياته والتفكر عبادة عظيمة قد يغفل عنها الكثيرون، وقد لا يفطن لمنزلتها السواد الأعظم من الناس رغم كونها عبادة جميلة يسيرة لا تكلف صاحبها جهدًا بدنيًّا؛ ولا تحتاج منه لبذل المال وإنما هى عبادة قلبية وعقلية تتحقق حين يمتلئ القلب بالإيمان، وينشغل بالقادر المنان ويسمو بنفسه فوق الأحقاد والأهواء والأضغان.

حينها يعم نور الله هذا القلب ويفيض نور القلب ليضئ العقل فيصبح العبد من أولى الألباب الذين ذكرهم الله في كثير من آي الذكر، وأثنى عليهم وجعل التفكر والاعتبار من صفاتهم.

ولقد ورد فى كتاب شرح رياض الصالحين فى التفكر ما نصه: [التفكر هو أن الإنسان يعمل فكره فى الأمر؛ حتى يصل فيه إلى نتيجة، وقد أمر الله -تعالى- به وحض عليه فى كتابه لما يتوصل إليه الإنسان به من المطالب العالية والإيمان واليقين[1]] ثم أورد المؤلف شرحًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ ٤٦]

(١) شرح رياض الصالحين للشيخ / محمد بن صالح العثيمين (١/٤٠٣)

فقال: [قل إنما أعظكم بواحدة؛ أي: قل يا محمد للناس جميعًا: ما أعظكم إلا بواحدة، أي: ما أقدم لكم موعظة إلا بواحدة فقط، إذا قمتم بها أدركتم المطلوب. ونجوتم من المرهوب، وهي: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا"

تقوموا لله مخلصين له: فتقومون بطاعة الله -عز وجل- على الوجه الذى أمرتم به مخلصين له، ثم بعد ذلك تتفكروا، فإذا فعلتم ذلك فهذه موعظة، وأي موعظة[١]!].

وهذا إنما يدل على علو مكانة تلك العبادة الجميلة التى ترتقي بإيمان صاحبها، وتملأ قلبه بعظمة خالقه.

ولقد قال الإمام ابن الجوزى رحمه الله: [سعد من تدبر وسلم من تفكر وفاز من نظر واستعبر[٢]].

وقال رحمه الله: [الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك، وقال: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكرًا فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتبارًا فهو لهو[٣]].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤٠٣/١)

(٢) التبصرة (٥٧/١)

(٣) التبصرة (٥٧/١) من كلام الحسن رحمه الله

إذن .. لا بُدَّ للمؤمن أن تكون حياته كلها عبادة لله عز وجل؛ حيث إنها الغاية من خلقه كما أخبرنا الله فى كتابه حين قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات ٥٦]

فالمؤمن يكون كلامه عبادة بالذكر والنصح والأمر بالمعروف ونشر العلم إلى غير ذلك، ويكون سكوته -أيضًا- عبادة، وذلك بالتفكر وإعمال العقل الذى شرف الله به الإنسان.

ولا بد أن يكون تفكرًا إيجابيًّا يرتقى بإيمان العبد، ويزيد من يقينه واستشعاره لعظمة خالقه -جل وعلا- ويكون فيه نوعٌ من المحاسبة للنفس والنظر فى أعماله القلبية ودرجة الإخلاص فيها، وكذلك فى عمل الجوارح ويسعى جاهدًا لإصلاح نفسه وتهذيبها واستخدام نعم الله -عز وجل- في نفسه وفي الكون لتكون سبيلاً للوصول لمرضاة الله -عز وجل- وبذلك يكون تفكره موصلاً لتحقيق الشكر لله عز وجل.

وعلى الإنسان أن يكون على حذر من تفكر مهلك؛ ذلك التفكر الذى يطلق فيه صاحبه لعقله العنان؛ ليهيم فى أمور لا قِبَلَ له بها، ولا يجني من ورائها إلا الخسران كالتفكير فى ذات الله -عز وجل- وفى الغيبيات التى أمرنا أن نؤمن بها بلا مجادلة، وفى الفلسفات الغربية والشاذه التى تضر بالعقل وتخرجه عن وظيفته التى خُلِقَ من أجلها إلى جانب كونها تفسد الإيمان، فإذا فسد الإيمان فثم الهلاك لا محالة.

ولا بُدَّ لتحقيق التفكر بصورته المرجوة من قلب حي وعقل يقظ وهمة عالية، ومن جميل ما قيل في ذلك ما قاله ابن الجوزي رحمه الله: [كيف تصح الفكرة لقلب غافل، وكيف تقع اليقظة لعقل ذاهل؟ وكيف يحصل الفهم للب عاطل؟! عجبًا لمفرط والأيام قلائل، ولمائل إلى ركن مائل، لقد خاب الغافلون وفاز المتقون:[1] ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس ١٠١]].

وأورد الإمام ابن الجوزي في الباب نفسه بعض ما أثر عن أهل الفضل في باب التفكر من ذلك:

قول ابن عباس: [ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة، وروى عن أم الدرداء -رضي الله عنها- أنها قالت: "تفكر لحظة خير من قيام ليلة، وقيل لها: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكر. وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم، ولا علم إلا عمل، وكان لقمان يجلس وحده ويقول: طول الوحدة أفهم للتفكر وطول التفكر دليل على طريق الجنة[2]].

وبذلك نرى أن التفكر إذا حققه العبد كما أمره ربه -عز وجل- وجعله عباده مستديمة له وديدنًا لحياته؛ فإنه لا محالة يكون من أنفع العبادات التي تعين العبد على تحقيق مقام الشكر.

---

(١) التبصرة (٦١/١)

(٢) التبصرة (٥٨/١)

فاللهم ارزقنا الفهم والبصيرة، واجعلنا من أولى النهى، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا يا ربّ العالمين.

٣- الرضا

والرضا عبادة جليلة تورث الطمأنينة وسكون النفس وهدوء القلب؛ ذلك فى الدنيا، ويجنى صاحبها ثمارها فى الآخرة من رضا الله -عز وجل- عنه وذلك هو الفوز المبين، [والرضا فى اللغة: ضد السخط، ويراد بالرضا عند العلماء تقبل ما يقضى به الله -عز وجل- من غير تردد ولا معارضة(١)].

والرضا بالله رباً:

[يعني: ألا يتخذ ربًّا غير الله -تعالى- يسكن إلى تدبيره، ويُتزِل به حوائجه(٢)].

[والرضا عن الله هو رضا العبد بما يفعله به، ويعطيه إياه(٣)].

إذن.. فالرضا بالله يعني: تمام التوحيد لله -عز وجل- وألا يشرك العبد به شيئًا، ويمتلئ قلبه وعقله بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى، فيحيا بها ومعها؛ فلا يستعين إلا بالله، ولا يلجأ إلا إلى الله -عز وجل- ولايسأل سواه، أما الرضا عن الله فهو الرضا بكل قضاء يقضى به الله -عز و جل- وبكل رزق يسوقه -سبحانه- إليه يقينًا من العبد أن الخير كل الخير فى قضاء الله وقدره؛ حتى لو لم يدرك العبد بعقله القاصر الحكمة الإلهية من هذا القضاء أو ذاك.

---

(١) الرضا عن الله لابن أبى الدنيا صـ٢١

(٢) الرضا عن الله لابن أبى الدنيا صـ٢٢ من كلام ابن القيم

(٣) الرضا عن الله لابن أبى الدنيا صـ٢٢ من كلام ابن القيم

فإذا حقق العبد هذين الصنفين من الرضا كان الجزاء من جنس العمل بأن يفوز برضا الله -عز وجل- عنه.

ورضا الله عن العبد هو غاية الغايات وأعلى مراتب الأمنيات، إذ ماذا يضير المرء بعد ذلك، وقد حظى برضوان المولى عز وجل.

والعاقل من يدرك أن الرضا خير كله؛ فأهل الرضا هم أهل السعادة فى الدارين، فهم فى الآخرة لهم البشرى من ربهم -عز وجل- بعظيم الجزاء وجزيل الثواب وهو رضاه -عز وجل- عنهم.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ* جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة٧-٨].

ولم يكن الله -عز وجل- ليمنحهم رضاه إلا بعد ما كان منهم من الرضا فى الدنيا.

وأما فى الدنيا فالراضى يكون غنيّ النفس مسلمًا بقضاء الله قانعًا بما يرزق قليلاً كان أم كثيرًا.

كما قال رسول الله ﷺ: ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس[1]

---

(١) (حسن): صحيح الجامع ١٠٠..

[وقال علقمة فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن١١] قال: هى المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى، وقال أبو معاوية الأسود فى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل٩٧] قال: إنه الرضا والقناعة[١]].

ولقد ورد فى الكتاب نفسه [أن علي بن أبى طالب -رضى الله عنه- نظر إلى عدى بن حاتم كئيبًا حزينًا فقال: يا عدى مالى أراك كئيبا حزينًا، فقال: وما يمنعنى فقد قتل ابناى، وفقئت عينى، فقال: يا عدى من رضى بقضاء الله جرى عليه، وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله[٢]].

وفى كلام الإمام على -رضى الله عنه- حكمة عظيمة لابد أن نفطن إليها؛ إذ ماذا يمنع المرء أن يرضى ما دام قضاء الله نافذًا فى الحالتين سواء رضى به أم لم يرض، ولِمَ يحرم المرء نفسه من الأجر الذى يناله حال الرضا، ليس هذا فحسب؛ بل إنه ينجو بنفسه من الخسران الذى قد يطاله إن هو سخط فأي الأمرين أحق بالاتباع يا أولى الألباب؟.

[ومن أقوال سفيان بن عيينة حين سئل عن حد الرضا عن الله تعالى فقال: الراضى عن الله لا يتمنى سوى المنزلة التى هو فيها[٣]].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين صـ٣٨٠.

(٢) مختصر منهاج القاصدين صـ٣٨٠.

(٣) صفوه الصفوه (٢/٢٣٦).

وعن العلاقة بين الرضا والشكر الذى هو موضوع بحثنا نقول وبالله التوفيق: إن الرضا من أهم الطرق وأيسرها التى توصل العبد إلى مقام الشكر إذ لا يتصور العاقل أن يكون العبد محققًا لشكر ربه -عز وجل- وهو ساخط على قضاء الله -عز وجل- معترض على ما يقدره الله -عز وجل- له غير قانع برزقه الذى قسمه الله له.

ولقد جعل الإمام ابن القيم الرضا والشكر فى مقامين متتابعين؛ حيث قال فى حديثه عن أحوال العباد الصالحين فى تلقيهم لقضاء الله وقدره إذا أصابهم بغير اختيارهم: إنهم على مراتب ثلاثة؛ [أولاها الرضا عن الله -عز وجل- فيها والمزيد من حبه والشوق إليه، وهذا من مشاهدتهم للطفه فيها وبره وإحسانه العاجل والآجل، ومن مشاهدتهم حكمته فيها ونصبها سببًا لمصالحهم.

والمرتبة الثانية شكره عليها كشكره على النعم، وهذا فوق الرضا عنه بها ومنه ينتقل إلى هذه المرتبة[1]] ومن هنا نجد أن العلاقة وثيقة بين كل من الرضا والشكر، وأن الرضا قنطرة تصل بصاحبها إلى مقام الشكر.

٤- التوكل على الله عز وجل

التوكل حبة نفيسة من حبات عقد الإيمان التى لا يكتمل إلا بها فهي عبادة من أجل العبادات وقربة إلى الله -عز وجل- من أعظم القربات.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين صـ ٣٣٨.

ولقد جعلها الله -عز وجل- من شروط الإيمان؛ حيث قال سبحانه: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة٢٣] كما جعلها صفة من صفات المؤمن الحق حين قال سبحانه: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم١١]

ولقد جعلها الرسول ﷺ سببًا لدخول الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب كما ورد ذلك فى حديثه الشريف عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه ﷺ قال[1]: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمْ الرَّهْطُ وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هَذَا أُمَّتِي هَذِهِ قِيلَ بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ قِيلَ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ قِيلَ هَذِهِ أُمَّتُكَ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ فَأَفَاضَ الْقَوْمُ وَقَالُوا نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَبَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجَ فَقَالَ[2]: هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ نَعَمْ فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ أَمِنْهُمْ أَنَا قَالَ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ. كما روى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ -عَلَيْهِ السَّلَام- حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حِينَ

---

(١) شرح رياض الصالحين.

(٢) البخاري ٥٧٠٥، مسلم ٢١٨.

قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[١].

إذن فالتوكل من صفات الرسل والأنبياء الذين هم صفوة الله من خلقه، والذين أمرنا أن نتأسى بهم -صلوات ربى وسلامه عليهم أجمعين- مما يدل على شرف المنزلة للمتوكل على ربه، وكفى لأهل التوكل أن يبشرهم الله -عز وجل- أنه كافيهم حيث قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق ٣] فكيف لمن كان الله حسبه ان يحزن أو يتعلق قلبه بالأسباب، ومعه مسبب الأسباب سبحانه.

والتوكل كما قال الشيخ حافظ بن أحمد الحكمى: [هو اعتماد القلب على الله وثقته به أنه كافيه[٢]].

وقال فيه الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه الماتع (الفوائد): [التوكل على الله نوعان أحدهما: توكل عليه فى جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

والثانى: التوكل عليه فى حصول ما يحبه هو ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه، وبين النوعين من التوكل من الفضل ما لا يحصيه إلا الله -عز وجل-

---

(١) البخاري ٤٥٦٣، مسلم ١٩٠٥، انظر: شرح رياض الصالحين (١/٣٨٥).

(٢) معارج المقبول صـ٢٩٢.

فمتى توكل عليه العبد فى النوع الثانى حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية ومتى توكل عليه فى النوع الأول دون

الثانى كفاه أيضًا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل فيما يحبه ويرضاه[1]].

ونرى أن الإمام ابن القيم رحمه الله قد جعل التوكل على الله على نوعين

الأول: توكل العبد على ربه فى قضاء حوائجه فى الدنيا فى كل ما تستقيم به حياته من مطالب، وكذلك التوكل عليه -عز وجل- فى دفع السوء والمصائب التى قد تقابله فى حياته.

أما الثانى: فهو التوكل على الله -سبحانه- لتحقيق ما يحب الله -عز وجل- أن يكون وما يكون سببًا لمرضاته -عز وجل- مهما كان فى ذلك الأمر من مصاعب ومواجهة للخطر ولأسباب الهلاك التى قد تثنى البعض عن المضيِّ فيه.

فالمتوكل على الله حق توكله يعلم تمام العلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن النفع والضر بيد الله وحده، فيجعله ذلك العلم لا يخشى إلا الله، ولا يتعلق قلبه إلا ببابه -سبحانه- فهو يسعى ويأخذ بالأسباب التى يسيرها الله له ولكن دون أن يعلق بقلبه شيء منها، ومتى حقق العبد تلك الدرجة العالية من التوكل كفاه الله -عز وجل- أمور دنياه، ثم كانت له العاقبة عند ربه عز وجل.

وحين نقول: التوكل فلا نعني بذلك الركون إلى الكسل والتواكل وعدم السعى والعمل والكسب؛ بل إن التواكل هذا من مداخل الشيطان إلى ابن آدم الذي يوهم

---

(١) الفوائد ٧٨.

الإنسان أنه لو سعى في مناكب الأرض ليكتسب ما يغنيه ومَنْ يعول ويحول بينه وبين سؤال الناس .. أنه يكون بذلك غير متوكل على ربه، وكذلك الحال مع من يأخذ حذره فى المواطن التى يجب فيها ذلك إلى غير ذلك.

ولقد ذكر ذلك الإمام ابن الجوزى فى كتابه: (تلبيس إبليس) فقال رحمه الله: [ولو عرفوا ما هية التوكل لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد؛ وذلك أن التوكل اعتماد القلب على الوكيل وحده، وذلك لا يناقض حركة البدن فى التعلق بالأسباب ولا ادخار المال فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء٥] "أي: قوامًا لأبدانكم].

وقال صلى الله عليه وسلم [١] "إنك ان تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس".

كما ذكر -رحمه الله- أن الله الذى أمرنا بالتوكل أمرنا بالحذر فقال: (وخذوا حذركم)، وبذلك يتضح لنا أن التوكل الحقيقى لا يتنافى مطلقًا مع الأخذ بالأسباب المباحة والعمل والسعى بل إن كلاً منهما لا يصلح إلا بوجود الآخر.

وأما عن علاقة التوكل بالشكر وكيف أنه من الأمور المعينة عليه والموصلة إليه فنقول بالله التوفيق:

---

(١) متفق عليه: البخارى١٢٣٣، مسلم ١٦٢٨.

إن التوكل مقام يوصل إلى مقام الرضا، والرضا كما سبق ذكره مقام يوصل إلى ما فوقه وهو مقام الشكر، ولكل مقام من الثلاثة قدره وقيمته وإن اختلفت الدرجات.

ولقد قال ابن القيم رحمه الله فى ذلك: [إن المقام لا ينعدم بالترقى إلى الآخر ولو عدم لخلفه ضده، وذلك رجوع إلى نقص الطبيعة وصفات النفس المذمومة، وإنما يندرج حكمه فى المقام الذى أعلى منه فيصير الحكم له[١]].

أي: أن الإنسان إذا تخطى مقام التوكل إلى مقام الرضا، ثم ارتقى إلى مقام الشكر فليس ذلك معناه انعدام وجود المقامين السابقين وهما: التوكل والرضا؛ حيث إن ذلك لو حدث لخلا المحل وأصبح عرضة لأن يمتلئ بضدهما من عدم التوكل والسخط.

ولكن ما يحدث أن كلاً من المقامين يندرج تحت الحكم الذى يعلوه فيصير درجة من درجاته.

ثم شبه فى الموضوع نفسه ذلك الأمر تشبيهًا جميلاً وسهلاً؛ ليوضح الأمر فقال: إن ذلك يشبه ما يكون للتاجر حين يربح من تجارة ما ثم يتاجر بالمال ثانية، فيربح فيكون الربح الثانى نتاج لتجارته الأولى والثانية معًا، وهكذا في المرة الثالثة يكون الربح نتاج للمرات الثلاث وهكذا فلا تلغى المرة الثالثة ما كان قبلها ولكنها مراحل.

---

(١) طريق الهجرتين ٣٣٨

٥- الإخلاص

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة٥]

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر١١]

فالإخلاص شرط من شروط العبودية لله -عز وجل- كما أنه شرط لقبول الطاعات والأعمال الصالحات؛ فالعمل لا يقبله الله -عز وجل- إلا إذا كان صالحًا، وكان صوابًا خالصًا لوجه سبحانه.

والأمر جاء من الرب القدير بوجوب الإخلاص فى الدين فى هاتين الآيتين الكريمتين وغيرهما؛ وذلك إنما يدل على المكانة العظيمة لتلك العبادة القلبية بل إنها ليست عبادة مستقلة بذاتها، إن فَعَلَهَا العبد أُجِرَ، وإن تركها أثِمَ؛ ولكنها عبادة لازمة لكل العبادات الأخرى القلبية منها أو البدنية، فالعمل مهما كان فيه من الصلاح والاجتهاد والبذل إن لم يكن خالصًا لله، فإنه يرد على صاحبه ولا يقبله المولى -عز وجل- منه.

والإخلاص أمر بين العبد وربه؛ فلا يستطيع أحد -كائنًا من كان- أن يحكم على درجة الإخلاص فى قلب العبد أو فى عمله؛ لأن الله -وحده- هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، فقد يعمل المرء العمل الصالح الذى يبدو للناس أنه عمل عظيم وقربى جليلة لله -عز وجل- بينما يكون الأمر على غير ذلك، فالنية محلها القلب، والقلب لا يعلم مكنونه إلا خالقه تبارك وتعالى.

ولذلك نجد الإمام البخارى -رحمه الله تعالى- قد افتتح كتابه الجليل: "صحيح البخارى" بحديث عمر بن الخطاب؛ "إنما ألأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .." ليؤصل بذلك قاعدة عظيمة لمن يدرس ذلك الكتاب الكبير، تلك القاعدة أن النية هى الأساس لكل ما سيأتى من أمور بعد ذلك سواء فى العبادات أو الأعمال أو الأقوال، فإن صلحت النية وكانت خالصة لله -عز وجل- لا شريك له حصلت الفائدة فيما يليها من أمور، وإن فسدت النية وانتفى الإخلاص لم يغن عن المرء أعماله وإن كثرت.

[وورد فى كتاب: (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) فى قوله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا....) قول أبى العالية: إن الله -عز وجل- وصاهم بالإخلاص فى عبادته.

وعن أبى عبد الملك البونى قال: مناسبة الحديث للترجمة أن بدء الوحى كان بالنية [١]؛ لأن الله -تعالى- فطر محمدًا على التوحيد وبغّض إليه الأوثان ووهب له أول أسباب النبوة، وهي الرؤيا الصالحة، فلما رأى ذلك أخلص إلى الله فى ذلك فكان يتعبد بغار حراء فقبل الله عمله وأتم له النعمة[٢]].

والشاهد من هذه الرواية أننا نخلص إلى عدة أمور مهمة منها:

أ- أن الفطرة السليمة تأخذ بيد صاحبها بتوفيق الله إلى تحقيق الإخلاص.

---

(١) حيث جاء الحديث فى كتاب بدء الوحى

(٢) فتح البارى (٦١/١)

ب- أن النبي ﷺ ولنا فيه الأسوة الحسنة لما علم حقيقة الإخلاص لم يركن إلى ذلك ويكتفي بما في قلبه بل إن ذلك الأمر كان دافعًا له لمزيد من الطاعة والتعبد والتقرب لله عز وجل.

جـ- أن الله عز وجل حين يرى من العبد المؤمن الإخلاص المؤيد بالعمل الصالح؛ فإن ذلك يكون سببًا لإتمام النعمة من الله -عز وجل- على عبده.

وهذه النقطة الأخيرة هي ما تتعلق ببحثنا الذي نحن بصدده؛ فالإخلاص شرط لتمام النعمة، ومن تمام النعمة أن يرزق المرء شكرها؛ حيث إن الشكر على النعمة هو نعمة في حد ذاته.

ونستطيع أن نقول بكل بساطة: إن الشكر عبادة بل ومن أعظم العبادات؛ ولذلك فإن هذه العبادة العظيمة لا تحصل إلا بحصول الإخلاص الذي علمنا آنفًا أنه شرط من شروط العبودية وشرط من شروط قبول العمل، فالارتباط بين الأمرين واضح وجليٌّ.

فاللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل، وجنبنا الشرك والرياء، إنك على ذلك قدير.

٦- سلامة القلب

لقد ذكرنا أن الشكر إنما يكون بالقلب واللسان والجوارح، إذن فالقلب له شكر كما للسان والجوارح، ولا يتصور العاقل المنصف أن يتحقق الشكر لقلب مريض مليء بالشرك والغي والضلال.

بل لا بد للعبد الشاكر من قلب سليم نقي متبع لربه مخالف هواه، ليس لله فيه منازع، ولقد قيل فى القلب السليم أقوال منها:

[السليم هو السالم الذى قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير، وأيضًا هو ضد المريض والسقيم والعليل؛ فهو الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره[١]].

ويقول ابن القيم رحمه الله: [هو القلب الذى قد سلم لربِّه وسلَّم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره؛ فهو سليم مما سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله؛ فالله وحده غاية وأمره وشرعه وسيلته وطريقته[٢]].

فذاك هو القلب السليم الذى يطلع عليه علاَّم الغيوب فيلقى فيه الخير والرزق العميم من المحبة والصبر والإخلاص والشكر والرضا وغيرها من الأرزاق الخفية التى ترتقى بالعبد؛ ليصير عبدًا ربانيًّا بحق.

ولا يكون القلب سليمًا إلا إذا اجتهد صاحبه مستعينًا بربه فى تطهيره مما يعلق به من أمراض إذ لا يمكن للقلب أن يتقبل الخير وهو مملوء بالشر، ولا أن يتقبل الحق وهو يعج بالباطل.

ولقد قال ابن القيم رحمه الله فى ذلك: [فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله -عز وجل- وإرادته والشوق إليه والأنس به لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره[١]].

---

(١) البحر الرائق صـ ٤٥.

(٢) مفتاح السعادة (٦٨/١).

وقال رحمه الله: [إن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم وفساد القصد، ويترتب عليهما داءان قاتلان؛ وهما الضلال والغضب، فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد، وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعا(٢)].

فعلى المرء أن يستعين بربه -عز وجل- ويضرع إليه بالدعاء أن يقيه من أمراض القلب، ويسعى لذلك بكل ما أوتى من أسباب، وإن وجد فى قلبه شيئًا منها فليبادر إلى علاجه؛ حتى يطهر القلب من الأسقام، ويغدو أرضًا طيبة لغراس الخير التى يفيض بها المولى على عباده الصالحين، وبذلك يكون منجاة لصاحبه يوم القيامة مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء ٨٨ - ٨٩].

٧- العلم

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر٩]

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر٢٨]

---

(١) الفوائد صـ ٢٨.

(٢) مدارج السالكين (١ / ٦٣).

فقد نفى المولى -عز وجل- حصول المساواة بين من عَلِمَ ومن جَهِلَ؛ إذ كيف يستوى من وهبه الله نعمة العلم والفهم؛ فهو على نور من ربه، ومَنْ مَثَلُهُ فى الظلمات ليس بخارج منها شتان شتان بين هذا وذاك.

فالعلم ركيزه أساسية من الركائز التى يقوم عليها الإيمان بالله -عز وجل- وبما أن الشكر هو شطر الإيمان، وهو -كذلك- مقامٌ رفيعٌ من مقامات العبودية لله -تبارك وتعالى- فإنه لا يحصل ولا يتأتى بدون العلم.

وكما قال الإمام ابن القيم رحمه الله: [العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة[1]] أي: أن الإيمان بلا علم كالجسد الميت

وحين نقول: إن الشُّكْرَ -الذى يندرج تحت مفهوم الإيمان الشامل- لا يمكن للمرء إدراكه إلا بالعلم؛ فذلك الكلام منطقيّ جدًّا، ويقبله العقل بكل سهولة ويسر؛ حيث إن العلم ضرورى للعبد؛ لكى يحقق ابتداءً التوحيد الخالص لله -عز وجل- فلا يمكن للجاهل أن يدرك حقيقة التوحيد ولا حقيقة التعبد والتقرب لله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا.

كما أن العلم لازم لتدبر آيات الله -عز وجل- وكلماته والتفكر فى كل ما يحيط بنا من آلاء ونعم فى الكون وفى أنفسنا ولإدراك أن الله -عز وجل- هو واهب النعم، وأنه سبحانه هو المستحق للحمد والشكر دون غيره.

---

(١) مفتاح دار السعادة ابن القيم (١ / ١٢٩).

وكذلك فإن من رُزِقَ العلم فإن الشيطان اللعين يصعب عليه أن يغويه أو يعبث بعقله وقلبه؛ إذ أن الجاهل يكون كالدمية فى يد الشيطان يتلاعب به كيف شاء.

أما من كان على علم وبصيرة فإنه يدرك أن الشيطان هو عدوه الأكبر، وأنه يسلك لإضلاله كل السبل فيستعين بالله عليه ويستعيذ بالله منه، ويسد عليه كل باب يحاول أن يدخل إليه منه، ولا يكون ذلك إلا لمن كان على علم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

كما أن أهل العلم هم الذين يعبدون الله -عز وجل- على بصيرة وعلى مراده -تبارك وتعالى- وعلى هدى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ذلك فهم يدركون كيف يحمد الله -عز وجل- وكيف يكون الشكر على نعمه -عز وجل- مخلصين عملهم لله؛ وبذلك يتحقق لهم الإخلاص وصلاح العمل وهذان هما شرطا قبول العمل كما ذكرنا، فيكون بذلك القبول من حظهم بإذن الله.

وحريٌّ بنا أن نشير إلى أن العلم هنا لا يقصد به بالضرورة أن يكون المرء عالمًا فى فرع من فروع العلم، ولكن هو السعى لتحصيل ذلك القدر من العلم والمعرفة التى يحتاجها المرء لإصلاح أمر دينه ودنياه ومعرفة ماله وما عليه، وليعرف كيف يحقق العبودية لله على ضوء كتاب ربنا وسنة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- كلٌّ بما ييسر الله -عز وجل- له، ومن زاد على ذلك ففضل من الله ومنة.

فاللهم ارزقنا العلم، وارزقنا الفهم في العلم، واجعلنا ممن يعلمون فيعملون، ويعرفون نعمتك فيشكرون .. اللهم آمين.

٨- اليقين

اليقين نعمة جليلة طوبى لمن رُزقها؛ فمن وهبه الله نعمة اليقين فقد أخذ بحظ وافر من خيرى الدنيا والآخرة.

ومن حرم تلك العطية كان ممن يتبعون الظن الذى لا يغني من الحق شيئًا، وعاش طيلة حياته ما بين اليأس والقلق والأوهام القاتلة؛ حتى يفسد ذلك عليه أمر دينه ودنياه.

فاليقين ضرورة من ضروريات الإيمان وصفة ملازمة للمؤمن فالله -عز وجل- يقول فى أول سورة البقرة: ﴿الم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة١- ٥] فجعل الله -عز وجل- اليقين من صفات المتقين، وجعله سببًا للفلاح فى الدنيا والآخرة.

وإن كنا قد تحدثنا فى الفقرة السابقة عن العلم، فلنعلم أن اليقين من أفضل ثمرات العلم وفوائده كما قال ذلك ابن القيم رحمه الله: [لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يثمر اليقين الذى هو أعظم حياة القلب وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة][1].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٤٠).

وقال رحمه الله: [إذا باشر القلب اليقين امتلأ نورًا وانتفى عنه كل ريب وشك وعوفي من أمراضه القاتلة وامتلأ شكرًا لله وذكرًا له ومحبة وخوفًا فحي عن بينة[١]].

وذلك يوضح لنا كيف أن اليقين ضرورة من ضرورات الوصول إلى مقام الشكر، فاليقين ينير القلب، ويذهب عنه أمراضه، فيصير قلبًا سليمًا متهيأً لاستقبال آيات الله ونعمة بالعرفان والثناء.

[وعن سفيان قال: قيل لأبي حازم ما مالُك؟ قال: ثقتي بالله -عز وجل- ويأس مما في أيدي الناس][٢].

فالمؤمن يجب عليه إن أراد أن يحقق التوحيد الخالص لله -عز وجل- أن تكون ثقته بربه لا حدود لها؛ فهي ثقة مطلقة مستمدة من معرفته بجلال ربه -عز وجل- وقدره وعظمته.

وقيل: [العلم يستعملك، واليقين يحملك؛ فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده، ولا يثبت قدم الرضا على درجة اليقين[٣]].

وذلك يوضح لنا أن حياة المؤمن كحبات العقد المنظومة في خيط رباني، فالعلم أول درجات اليقين، واليقين موصل للرضا، والرضا مقام يعلوه مقام الشكر، وغير ذلك من المقامات والدرجات والعبادات التي ترتبط ببعضها البعض، ويستقي

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٤٠).

(٢) صفة الصفوة (٢ / ١٥٦).

(٣) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٤١).

بعضها من بعض دون تعارض ولا تنافر؛ حتى تكتمل النفس المؤمنة؛ التي يريدها الله عز وجل.

ومن صور اليقين التي تستقر في قلب المؤمن

١ – اليقين بموعود الله عز وجل

قال الله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم٦٠]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة ١٤٧]

وقال سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة٢]

فالله عز وجل وعده الحق؛ فإذا وعد المتقين بالفوز والأجر العظيم فحق لهم ذلك، وإن توعَّد الكافرين الجاحدين بالعذاب والويل والثبور؛ فلهم ذلك فهو – سبحانه وتعالى– بيده ملكوت السموات والأرض، ولا يُسأل –سبحانه وتعالى– عما يفعل وهم يُسألون؛ فلا مانع لما يعطي، ولا معطي لما يمنع –عز وجل– عن الند والشريك.

ب – اليقين بأن الله غني عنا

قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان١٢]

فلا بد من اليقين بأن الله -عز وجل- غنيّ عن عباده لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية؛ بل إن العبد إن أطاع أو عصى فمردود ذلك عليه سواء بالخير أو بغير ذلك، وإن أدرك المرء تلك الحقيقة حمد الله -عز وجل- على كرمه العظيم؛ حين يرسم لنا طريق النجاة ويهدينا للطاعة، ويوفقنا لسبل الخير والفلاح رغم غناه -عز وجل- عن طاعتنا.

جـ - اليقين بأن التجارة الرابحة هي مع الله عز وجل

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر٢٩]

وقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف١٠-١١]

فالرابح من كانت تجارته مع الله -عز وجل- فتلك هى التجارة الرابحة على الدوام لا يعتريها خسران ولا كساد؛ فهى مع رب الكون الذى بيده خزائن السموات والأرض.

فكيف يترك العاقل تلك التجارة إلى ما هو دونها من عرض الدنيا الزائل!.

ورحم الله شيخنا ابن القيم حين قال: [فيا عجبًا من سفيه فى صورة حليم، ومن معتوه فى مسلاخ عاقل آثر الحظ الفانى الخسيس على الحظ الباقى النفيس،

وباع جنة عرضها السموات والأرض بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليات ومساكن طيبة فى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار بأعطان ضيقة آخرها الخراب والبوار] [١].

د- اليقين بأن الله وحده واهب النعم

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل٥٣]

فالنعم -جميعها- من فيض جوده -عز وجل- فلا يجب على المؤمن أن يهتز يقينه فى هذه الحقيقة بل يجب أن يستقر فى قلبه أن كل ما هو فيه من نعم ومنح عظيمة إنما هو رزق ساقه الله إليه؛ فإن أراد زاده وإن أراد حجبه فهو -سبحانه- المتصرف فى الكون كيف يشاء، ومن يدرك ذلك فإنه يوجه ثناءه إلى ربه -عز وجل- وحده لعلمه بقدرته، وبأنه المستحق للشكر سبحانه دون غيره.

فاللهم ارزقنا يقينًا صادقًا يغمر قلوبنا، ويعيننا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك يا رب العالمين.

٩- الحياء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[١]: الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً؛ فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ.

---

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٤).

فجعل رسول الله الحياء من الإيمان، والحياء -كما ورد في كتاب شرح رياض الصالحين- هو: [انكسار يكون في القلب وخجل لفعل ما لا يستحسنه النـاس، والحياء من الله، والحياء من الخلق من الإيمان، فالحياء من الله يوجب للعبد أن يقوم بطاعة الله، وأن ينتهي عما نهى الله، والحياء من الناس يوجب للعبد أن يستعمل المروءة، وأن يفعل ما يجمله ويزينه عند الناس، ويتجنب ما يدنسه ويشينه؛ فالحياء كله من الإيمان[٢]]

وبذلك ندرك أن الحياء خلق جميل يعين العبد على تحقيق مقام الشكر، ذلك أن العبد الذي يُرْزَق الحياء تراه يستحي أن يراه الله -عز وجل- على معصية، فهو ينأى بنفسه عن المعاصي ويسعى لتحقيق الطاعة بكل ما أوتي من أسباب ذلك.

فالقلب حين يغمره الحياء يكون قلبًا حيًّا نابضًا بخشية الله -عز وجل- لا يجترئ على ربه -عز وجل- بالمعاصي.

فهو بذلك [يصبر على الطاعة ويصبر عن المعصية وذلك هو عين الشكر][٣].

١٠- ذكر الله عز وجل

قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد ٢٨].

---

(١) (صحيح) البخاري ٩ ، مسلم ٣٥.

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/٤٩٤).

(٣) عدة الصابرين(١٤٧)

وقال عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة١٥٢]

فالذكر والشكر أمران متلازمان؛ حيث إن الذكر فى حد ذاته هو: شكر الله -عز وجل- شكر بالقلب واللسان.

وقوله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ يوضح لنا أن الذى يذكر الله -عز وجل- يكون جزاؤه من جنس عمله، فإذا ذكر العبد ربه ذكره الله -عز وجل- وشتان ما بين ذكر وذكر، فذكر العبد ربَّهُ يكون محبة له -عز وجل- وتقربًا ورغبة فيما عنده من الثواب وطمعًا فى رضاه -سبحانه وتعالى- حيث إن العبد فقير إلىٰ ربه.

أما ذكر الله للعبد فتلك منزلة طوبى لمن يرقى إليها؛ إنها فضل عظيم من رب كريم، يفيض على عباده بالمنن وهو الغنى عنهم -سبحانه- ومن ذكره ربه وهبه من نعمه ما لا يحصيها إلا هو -سبحانه- ليس هذا فحسب؛ بل إن الله -عز وجل- يرزق العبد المؤمن شكر تلك النعم والآلاء، ومن هنا ندرك الترابط الكبير بين الذكر والشكر.

عَنْ مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّه أَخَذَ بِيَدِه وَقَالَ[1]: يَا مُعَاذُ وَاللَّه إِنِّي لأُحِبُّكَ وَاللَّه إِنِّي لأُحِبُّكَ فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ.

والذكر كما قال ابن القيم رحمه الله: [ليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان؛ بل الذكر القلبي واللساني، وذكره يتضمن ذكر أسمائه وصفاته وذكر أمره ونهيه وذكره

---

(١) (صحيح) ابو داود ١٥٢٢.

بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به وبصفات كماله ونعوت جلاله والثناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتم إلا بتوحيده فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كله ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه[1]].

وإذا تأملنا الجملة الأخيرة من كلام ابن القيم فإننا ندرك الارتباط الوثيق بين الذكر والشكر؛ حيث إن فى قوله: إن الذكر يستلزم ذِكر نعم الله وآلائه وإحسانه إلى خلقه ما يؤكد ذلك؛ فذكر النعم والألاء هو الشكر.

وما دمنا نتحدث عن الذكر فلابد من أن نتحدث عن أفضل الذكر، وهو ذكر الله -عز وجل- بكلامه ألا وهو القرآن العظيم؛ فليس هناك ذكر مهما بلغ من الفصاحة والجمال ما هو أفضل من كلام رب العالمين، إذ كيف يستوى كلام العباد وكلام رب العباد؛ تالله لا يستويان، ولقد قال سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص٢٩].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد٢٤].

فذكر الله -عز وجل- بكلامه لا ينبغي أن يكون بالتلاوة فقط؛ بل يكون بالتدبر لآياته والعمل بأحكامه، ولقد ورد فى كتاب مدارج السالكين لابن القيم رحمه الله فى ذلك المعنى قوله: [فليس شيء أنفع للعبد فى معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها.

---

(١) الفوائد - ابن القيم - صد ١١٤.

ثم ذكر -رحمه الله- فوائد عديدة لذلك ثم أجملها بقوله: وبالجملة تعرف العبد الرب المدعو إليه وطريق الوصول إليه وماله من الكرامة إذا قدم عليه وتعرفه في مقابل ذلك ثلاث أخرى ما يدعو إليه الشيطان والطريق الموصلة إليه وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه[1].

فإذا علم العبد هذه الأمور الست وفهمها فلا يزال يرتقي في مقامات العبودية؛ حتى يدرك مقام الشكر الذي هو من أفضل المقامات وأعلاها.

أما من هجر القرآن فقد فاته الخير كله، والهجر -كما قال ابن القيم- [على خمسة أنواع:

أ - هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

ب- هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

ج- هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه.

د- هجر تدبره وفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

هـ- هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها.

وكل ذلك داخل في قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٨٦).

فعلى المؤمن أن يكون ملازمًا لكتاب الله فى كل أوقاته، وأن تملأ معانيه وأحكامه قلبه، وتأخذ بملاك نفسه حتى يحقق الإيمان، ويكون من أهله الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله؛ فإن فعل كان من الشاكرين.

١١- اجتناب الكبر والتزام التواضع لله عز وجل

التواضع والتذلل والخضوع لله -عز وجل- لازم لمن أراد أن يكون فى زمرة الشاكرين؛ فالكبر والشكر لايمكن أن يجتمعا فى قلب امرئ قط؛ حيث إن الشكر بدايته تكون مع اعتراف العبد بنعم الله -عز وجل- والإقرار بأنها من الله وحده، وأنه المتفضل بتلك النعم -سبحانه- وأنه يعطى ويمنع كيف يشاء، وكل تلك الأمور لا يحققها العبد المتكبر؛ حيث يكون تكبره هذا حائلاً بينه وبين الاعتراف بفضل الله عليه، وبالتالى فلا يشكر الله -عز وجل- استعلاءً وتعاليًا بغير حق والمولى -عز وجل- قد ذم الكبر وأهله فى كثير من الآيات القرآنية فقد قال تعالى: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر٦٠].

وقال أيضًا: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل٢٢]

فالله -تبارك وتعالى- لا يحب المستكبرين بل يتوعدهم بعذاب جهنم فى الآخرة؛ لأن تكبرهم ذلك يجعل قلوبهم تنكر الحق وتنكر الآيات البينات ولا تسلم بأمر الله -عز وجل- ونهيه.

وتلك القلوب إذا تمادت فى غيها ولم ترجع إلى طريق ربها طبع الله عليها كما قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر٣٥]

ومن طبع الله على قلبه فقد هلك؛ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ(١).

إذن فالله -عز وجل- يخبرنا أن الكبرياء له وحده لا شريك له، وأن العظمة لا تنبغى لسواه فهو -سبحانه- مالك الملك، وهو الرزاق ذو القوة المتين، فمن سولت له نفسه أن ينازع الرب العلي فيما له وحده فقد أهلك نفسه وإني لأرى أن الكبر ضرب من الغباء الشديد والضلال المبين؛ إذ كيف للعبد الذي شرفه الله بالعقل دون سائر المخلوقات أن تسول له نفسه المريضة أن يتكبر بما ليس له فيه يد، أيتكبر على عبودية الله -عز وجل- وعلى التزام أمره واجتناب نهيه وهو -سبحانه- الذى خلقه من قبل ولم يك شيئًا، أيغتر بماله والله -عز وجل- هو من رزقه إياه حتى وإن قال مثل قول قارون: إنما أوتيته على علم؛ فمن الذى علمه

---

(١) (صحيح): ابن ماجة ٤١٧٥، صحيح الجامع ٣٠٥٩.

ومن الذى هيأ له أسباب الكسب؛ ألم يجمع هذا المال من أرض الله -عز وجل- تحت سمائه وإن اغتر بعلمه!.

فمن الذى علمه هل خرج من بطن أمه عالمًا؛ أفلا يتذكر أنه خرج إلى الدنيا لا يدرك شيئًا ولا يعقل. بل إنه لم يكن يعلم للحروف والكلمات معنى.

أيستطيل على الناس بصحته وقوته، وهو الذى من قبل كان جنينًا ضعيفًا فى رحم أمه ثم أخرجه الله -عز وجل- بقدرته للحياة فأتى للدنيا لا يملك من أمر نفسه شيئًا ولا يستطيع دفع الضر عن نفسه إن هو أصابه؛ بل إنه لولا فضل الله عليه وقذف الحنان فى قلب أمه لما استطاع أن يكمل حياته: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل٧٨] وإن اغتر بنسبه فليسأل نفسه: هل له أدنى فضل فى ذلك؟!.

فلنعلم أن الكبر غباء وضلال وفعل من أفعال الجاهلية الأولى، وعلى العبد المؤمن أن يكون على حذر من أن يتسرب إلى نفسه شيء منه ولو قليل فلقد روى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ؛ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ(١).

وأن يسعى دائمًا لكل عمل وكل طاعة تعينه على تحقيق التواضع لخالقه جل وعلا، وأن يستشعر ضعفه أمام عظمة خالقه سبحانه، وأن يضع نصب عينيه دائمًا

---

(١) (صحيح): مسلم ٩١.

الغاية التي خلق من أجلها وهي عبادة الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات٥٦] وأن يتخذ من سيرة المصطفى نموذجًا للتواضع وخفض الجناح للمؤمنين؛ فلقد ورد في كتب السيرة أنه -صلى الله عليه وسلم- كان في مهنة أهله، وأنه -بأبي هو وأمي- كان يحلب الشاة ويرقع الثوب ويخصف النعل ويأكل مع خادمه ويحمل متاعه ويصافح الغني والفقير، ويستمع إلى الصغير والكبير.

كان يفعل ذلك تواضعًا لربه -عز وجل- وهو خير خلق الله قاطبة؛ ولكنه العبد الشكور صلى الله عليه وسلم.

ومما ورد عن سلفنا الصالح في منقبة التواضع نذكر ما كان من خامس الخلفاء الراشدين الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- فلقد جاء [أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيوف، وكان يكتب فكان السراج يطفأ فقال الضيف: أقوم إلى السراج فأصلحه، فقال: ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، قال: أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها فقام وملأ المصباح زيتًا، فقال الضيف: قمت أنت يا أمير المؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه: ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء وخير الناس من كان عند الله متواضعًا[1]].

(١) البحر الرائق صـ ١٤٩.

وعن علي بن الحسن قال: [سمعت سفيان بن عيينة يقول: من رأى أنه خير من غيره، فقد استكبر وذلك أن إبليس إنما منعه من السجود لأدم -عليه السلام- استكباره[١]].

وعن سعيد بن داود عن ابن عيينة قال: [من كانت معصيته فى الشهوة فارج له التوبة، فإن آدم عصى مشتهيًا فغفر له؛ فإذا كانت معصيته فى كبر فاخش على صاحبه اللعنة؛ فإن إبليس عصى مستكبرًا فلُعِنَ[٢]].

وهكذا يتضح لنا أن الكبر داء عضال، إن أصاب القلب كان سدًّا منيعًا يحول بين المرء والاعتراف بنعم الله وآياته؛ فلا يمكن لصاحبه أن يكون فى ركب الشاكرين.

وإن التواضع والتسليم لله -عز وجل- من أهم الأمور التى تعين العبد على تحقيق الشكر لربه تبارك وتعالى، فاللهم لك الشكر كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

١٢- الزهد

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر٥]

---

(١) صفة الصفوة (٢ / ٢٣٢).

(٢) صفة الصفوة (٢ / ٢٣٢).

[وقال الحسن البصرى: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر وَلَهي كانت فى أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يُطوَ لَهُ ثوب؛ ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئًا، ولا أمر من فى بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها فلم يزالوا على ذلك،ووالله ما سلموا من الذنوب، ولا نجوا إلا بالمغفرة؛ رحمة الله عليهم ورضوانه][1].

ولنا فى رسول الله الأسوة الحسنة؛ فهو ﷺ صاحب أزكى نفس وأطيبها؛ فنراه راضيًا شاكرًا صابرًا فى كل أحواله، إن عاش أيام فقر وشدة نراه راضيًا صابرًا، وإن فتحت له الدنيا لا يعلق منها شيء فى قلبه بل نراه ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر شكرًا لربه على نعمته وزهدًا فى متاع الدنيا الزائل؛ ورجاءً لما ينتظره من ثواب ربه -عز وجل- فى الآخرة.

وقال بعض السلف: [الزاهد من لا يغلب الحلال شكره، ولا الحرام صبره[2]].

أي أن الزاهد الحقيقى هو من إذا أعطاه الله من الحلال الطيب غلب عليه شكره، وإن بدا له شيء من الحرام غلب عليه صبره.

---

(١) البحر الرائق صـ ١٩٤.

(٢) عدة الصابرين صـ ٢٥٥.

والزهد فى الدنيا لا يعنى أبدًا ترك السعى فى طلب الرزق الحلال، أو أن يصبح المسلمون كلهم فقراء ويتركوا أموالهم التى استخلفهم ربهم عليها لتقع فى أيدى أقوام لا يتقون الله فيها، ويفسدون بها فى الأرض ولكن الزهد كما قال ابن القيم رحمه الله: [سمعت شيخ الإسلام -رحمه الله- يقول: الزهد تركك ما لا ينفعك، والورع تركك ما يضرك، فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليدين منها، ويقابله الشح والحرص[١]]. بمعنى: أن الزاهد هو من يجعل الدنيا بين يديه؛ لكنها لا تسكن قلبه، وتكون ثقته بما عند الله حين ينفق أكبر من ثقته بما فى يده، وألا يحزن لحظ فاته من الدنيا، وألا يفرح إن هى أقبلت عليه، وأن يستوى عنده من يذمه ومن يمدحه فى الحق.

وقال ابن القيم رحمه الله: [الزهد لا ينافى الغنى بل زهد الغنى أكمل من زهد الفقير؛ فإن الغني زهد عن قدرة، والفقير عن عجز، وبينهما بعد بعيد، وقد كان رسول الله فى حال غناه أزهد الخلق، وكذلك إبراهيم الخليل كان كثير المال، وهو أزهد الناس فى الدنيا[٢]].فنعم الحلال الصالح للعبد الصالح.

[وسئل الإمام أحمد إمام أهل السنة عن الرجل يكون معه ألف دينار: [هل يكون زاهدًا؟ قال: نعم بشرط أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت[٣]].

---

(١) عدة الصابرين صـ ٢٥٥.

(٢) عدة الصابرين صـ ٢٥٤.

(٣) عدة الصابرين صـ ٢٥٥.

[وقال الحسن البصرى: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ولَهي كانت فى أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يُطوَ لَهُ ثوب؛ ولم ينصب له قدر، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئًا، ولا أمر من فى بيته بصنعة طعام قط، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها فلم يزالوا على ذلك،ووالله ما سلموا من الذنوب، ولا نجوا إلا بالمغفرة؛ رحمة الله عليهم ورضوانه][(١)].

ولنا فى رسول الله الأسوة الحسنة؛ فهو ﷺ صاحب أزكى نفس وأطيبها؛ فنراه راضيًا شاكرًا صابرًا فى كل أحواله، إن عاش أيام فقر وشدة نراه راضيًا صابرًا، وإن فتحت له الدنيا لا يعلق منها شيء فى قلبه بل نراه ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر شكرًا لربه على نعمته وزهدًا فى متاع الدنيا الزائل؛ ورجاءً لما ينتظره من ثواب ربه -عز وجل- فى الآخرة.

وقال بعض السلف: [الزاهد من لا يغلب الحلال شكره، ولا الحرام صبره[(٢)]].

أي أن الزاهد الحقيقى هو من إذا أعطاه الله من الحلال الطيب غلب عليه شكره، وإن بدا له شيء من الحرام غلب عليه صبره.

---

(١) البحر الرائق صـ ١٩٤.

(٢) عدة الصابرين صـ ٢٥٥.

ومما سبق يتضح لنا أن الزهد صفة حين تقر فى قلب العبد المؤمن؛ فإنها تكون خير معين له على تحقيق مقام الشكر، فاللهم اجعل الدنيا فى أيدينا، ولا تجعلها فى قلوبنا يا مقلب القلوب.

١٣- الاستغفار

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت٦]

وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد١٩]

فالمولى -تبارك وتعالى- أمرنا فى الكثير من الآيات بالاستغفار وقرنه -عز وجل- تارة بالاستقامة على طريق الله، وتارة بتوحيده -سبحانه- وبأمور أخرى كلها على قدر كبير من الأهمية، وذلك مما يدل على علو مكانة هذه العبادة الجليلة؛ حيث إنها تورث يقظة القلب، واستشعار العبد أنه لا غنى له عن مولاه طرفة عين، وأنه فى حاجة دائمة لمغفرة مولاه -عز وجل- كما أنه يكون لديه شعور دائم بالتقصير فى حق ربه -عز وجل- عليه مما يجعله متذللاً لله -سبحانه- متذكرًا لذنوبه فيدفعه ذلك إلى الاستزادة من الأعمال الصالحات والبعد عن المنهيات، وذلك هو عين الشكر.

ولقد قال ابن القيم -رحمه الله- فى فوائد التوبة والاستغفار: [إن منها أن العبد إذا شهد ذنوبه ، معاصيه وتفريطه فى حق ربه استكثر الكثير من نعم ربه عليه، ولا

قليل منه لعلمه أن الواصل إليه فيها كثير على مسئ مثله، واستقل الكثير من عمله لعلمه بأن الذي ينبغي أن يغسل به نجاسته وأوضاره أضعاف ما يأتي به؛ فهو دائمًا مستقل لعمله كائنًا ما كان مستكثرًا لنعمة الله عليه وإن دقت، ولو لم يكن من فوائد الذنب إلا هذا لكفى[١]].

والشاهد من كلام ابن القيم رحمه الله أن من داوم على الاستغفار فإنه يرى نفسه دائمًا مذنبًا مقصرًا، ومن كانت هذه حاله مع ربه فإنه دائمًا يرى نعم الله عليه أكبر من قدرته على شكرها، ويرى أعماله مهما عظمت قليلة في مقابل آلاء الله -عز وجل- عليه، وذلك الشعور لا يكون إلا لقلب حي سليم، وذلك هو قلب الشاكرين.

وعلى الجانب الآخر نجد أن الاستغفار هو من أسباب جلب الرزق كما أخبرنا ربنا -عز وجل- في قوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا *وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:١٠-١٢] وهذه الأرزاق هي من نعم الله -عز وجل- التي إن أصابت العبد المؤمن استحثته على شكر الله؛ إذ أن الشكر إنما يكون على النعم.

وحسبنا أن رسول الله ﷺ جعل سيد الاستغفار وسيد الدعاء: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي

(١) مفتاح السعادة (١ / ٤٤٦).

فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» (١). فجمع رسول الله فى هذه الكلمات الجامعة بين توحيد الله -عز وجل- وإننا كلنا له عبد، وبين الاعتراف بالنعم التى هي أول مراتب الشكر وبين طلب المغفرة من الله -عز وجل- على الذنوب والمعاصى والتقصير فى شكر تلك النعم العظيمة.

١٤- طلب العون من الله على تحقيق الشكر

قال الله -عز وجل- على لسان نبى الله سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل١٩]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف ١٥]

فالعبد الصالح حين ينعم الله -عز وجل- عليه فإنه يعترف بتلك النعم ويقر بأنها من الله -عز وجل- وحده ليس هذا فحسب؛ بل إنه يستيقن أنه لولا توفيق الله له

---

(١) (صحيح): البخارى ٦٣٠٦، الترمذى ٣٣٩٣، النسائى ٥٥٢٢.

لما تسنى له أن يحقق شكر تلك النعم؛ ولذلك فإنه يلجأ إلى مولاه ويتضرع له بالدعاء أن يعينه على شكر نعمه.

وذلك من كمال الإيمان لأن العبد فى تلك الحالة يكون قد فوض أمره كله لله لعلمه أن الله -عز وجل- هو المتفضل أولاً وأخيرًا؛ فهو الذى ينعم وهو الذى يوفق عبده لتحقيق شكره ثم هو -سبحانه- من يجزى عبده على ذلك الشكر.

ولقد كان من دعاء النبى ﷺ [1]: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ.

وهى أمور ثلاثة كلها يدخل فى مفهوم الشكر؛ سواء الشكر أو الذكر الذى هو من الشكر كما أسلفنا أو التوفيق لحسن العبادة بأن تكون خالصة لله، وعلى مراده -سبحانه- وعلى هدى نبيه محمد ﷺ وذلك أيضًا من الشكر.

---

(١) (صحيح) أبو داود ١٥٢٢.